الباب الأول

تعريف الدعوة وأسسها فى القرآن

وينتظم ثمانية فصول

الفصل الأول: معنى الدعوة لغة

الفصل الثانى: معانى الدعوة كما وردت فى القرآن الكريم.

الفصل الثالث: أسس الدعوة فى الإسلام.

الفصل الرابع: أسس الدعوة فى قصص القرآن الكريم.

الفصل الخامس: أهداف القصة فى القرآن الكريم.

الفصل السادس: حكمة تكرار القصة فى القرآن الكريم.

الفصل السابع: دعوة نوح إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

الفصل الثامن: أسس الدعوة إلى الله تعالى فى قصة نوح عليه السلام.

الفصل الأول

معنى الدعوة فى اللغة

قال تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ * ﴾[1]

أى: يدعو إلى الجنة دار السرور والإقامة ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، أى يوصل من شاء هدايته إلى الطريق المستقيم وهودين الإسلام[2] والدعوة إلى الإسلام تعنى المحاولة العملية أو القولية لإمالة النّاس إليه.

جاء فى بعض معاجم اللغة: أن الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد. ومعناه أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، وتقول: دعوت، أدعو، دعاء.

والدعوة إلى الطعام تكون بالفتح. والدعوة إلى النسب بالكسر، ومنه داعية اللبن؛ مايترك فى الضرع ليطلب مابعده، ومنه تداعت الحيطان: إذا سقط واحد وآخر بعده، فكأن الأول يدعو الثانى، ودواعى الدهر: صروفه؛ لأنها تأتى متعاقبة وكأن الأول يدعو الثانى فيميله وهكذا[3].

والمراد بدعوته سبحانه إلى دار السلام ـ وهى الجنة ـ: دعوته عباده إلى مايكون سبباً فى دخولهم الجنة؛ وهو الالتزام بدينه الذى بعث به رسوله وأنزل به كتبه، ومنه قوله تعالى:

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٥.

(٢) صفوة التفاسير ج ١ ص ٥٨١.

(٣) معجم مقاييس اللغة ج ٢ص ٢٣٩ مادة (دعا).

﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾[1]

وقد سمى القرآن الرسول الكريم ﷺ داعياً إلى الله، قال جل شأنه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦ ﴾[2]

فالرسول ﷺ أُرْسِلَ داعياً إلى توحيد الله وطاعته بإذن المولى جل شأنه، لامن تلقاء نفسه، وهو كالسراج المضيء فى الظلمة لمن يهتدى به[3].

وقوله تعالى:

﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ ﴾[4].

قال صاحب اللسان:

«والدعاة: قوم يدعون النّاس إلى بيعة هدى أو ضلالة، واحدهم داع، ورجل داعية: إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين.

أدخلت الهاء فيه للمبالغة، والنبى ﷺ داعى الله تعالى، وكذلك المؤذن، وفى التهذيب: المؤذن داعى الله، والنبى ﷺ داعى الأمة إلى توحيد الله وطاعته...»[5].

وجاء فى المصباح: دعوت الله، أدعو، دعاء: ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير، ودعوت زيداً: ناديته وطلبت إقباله، ودعا المؤذنُ النّاسَ إلى الصلاة،

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٣) زاد المسير ج ٦ ص ٤٠٠ بتصرف كبير.

(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٣١.

(٥) لسان العرب لابن منظور: ج ١٤ ص ٢٥٩.

فهو داعى الله. والجمع: دعاة، وداعون، والنبى داعى الخلق إلى التوحيد[1].

يتضح لنا مما تقدم أن كل من يدعو إلى هدى، أو ضلالة يشمله وصف الداعية ويدخل هذا فى قول المصطفى صلى الله عليه وسلم:

«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لاينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئاً»[2].

وإنما يتميز كل منهما بإضافته إلى مايدعو إليه، يقول العلامة ابن القيم: «الدعاة جمع داع، كقاض وقضاة، ورام ورماة، وإضافتهم إلى الله، للاختصاص: أى الدعاة المخصوصون به، الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته. وهؤلاء هم خواص خلق الله، وأفضلهم عند الله منزلة، وأعلاهم قدراً»[3].

خلاصة القول: يتلخص لنا مما تقدم أن كلمة (دعوة) تعنى ـ لغويّاً ـ المحاولات القولية والفعلية من أجل تحقيق هدف أو عمل، ومن المعلوم أن الأقوال لها ثقلها وصعوبتها؛ لأنّ فيها المناداة والطلب والإلحاح، وفيها الجهد والعمل.

وكلمة (الدعوة) من الألفاظ المشتركة التى تطلق على الإسلام وعلى عملية نشره بين النّاس، وسياق إيرادها هو الذى يحدد المعنى المراد. فمثلا إذا قيل: هذا من رجال الدعوة إلى الله، كان معنى الدعوة هنا محاولات النشر والتبليغ.

وإن قيل: اتبعوا دعوة الله، كان المراد بها الإسلام.

* * *

(١) المصباح المنير للفيومى ص ٧٤ مادة (دعا) وانظر أساس البلاغة. مادة (دعا)

(٢) رواه مسلم: كتاب العلم: ٤/ ٢٠٦٠ وأبو داود: كتاب السنة: ٤/ ٢٠١ عن أبى هريرة رضى الله تعال عنه.

(٣) مفتاح دار السعادة: ابن القيم: ١/ ١٩٤.

الفصل الثانى

معانى الدعوة كما وردت فى القرآن الكريم

تفيد كلمة (الدعوة) عدة معان كما وردت فى القرآن الكريم، ويمكن تلخيص ذلك فيما يأتى:

١ـ فهى تفيد معنى الاستغاثة. والرجاء، والسؤال.

٢ـ تفيد معنى العبادة يؤديها الإنسان لإلهه الذى يؤمن به.

٣ـ تفيد معنى النسب والإلحاق

﴿ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾[1].

٤ـ تفيد معنى ترغيب النّاس فى اتباع دين الله تعالى.

٥ـ وأخيرا تفيد توجيه النّاس إلى تبليغ دين الله والدعوة له، وتوجيه الخلق نحو صراط الله المستقيم، وتفيد دين الله الذى هو الإسلام:

قال تعالى:

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾[2].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٩١.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٤.

ومع هذه المعانى المتعددة المستفادة من كلمة الدعوة ومشتقاتها فإنّها عند الإطلاق تنصرف إلى معنى الإسلام الذى هو دعوة الله للخلق بكل جوانبه وأركانه[1].

فقد جاءت كلمة (الدعوة) فى القرآن فعل أمر فى قول الله تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[2]

وجاءت فعلا ماضياً فى قول الحق تعالى:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[3]

وجاءت فعلا مضارعاً فى قوله تعالى:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[4]

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾[5].

وجاءت اسم فاعل: يقول تعالى:

---

(١) أصول الدعوة ص ٧ـ٨ د. أحمد غلوش.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٤) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٥) سورة الجن الآية: ١٨.

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾[1].

وفى قوله جل شأنه:

﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ ﴾[2].

وجاءت مصدراً كما فى قول الله جل شأنه:

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾[3]

وفى قوله تعالى:

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[4].

ويقوم بالدعوة دعاة، إما باختيار الله لهم، وطلبه منهم عن طريق الوحى، وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وإمّا بوراثتهم فى علمهم وهديهم، وذلك للعلماء والأولياء والصالحين.

فالدعوة إذاً وظيفة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وواجب العلماء من أتباعهم، ومسئولية المؤمنين من أممهم[5].

وهى واجب عام، وفريضة مستمرة، والاضطلاع بأعبائها فى تكافل وتعاون

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الأحقاف، من الآية: ٣١.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٤.

(٤) سورة غافر، الآية: ٤٣.

(٥) الدعاة إلى الله فى القرآن الكريم ص ٤ د. محمد طلعت أبو صير.

يجعل من العمل المشترك استمراراً لجهاد رسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لإعلاء كلمة الله ونشر دينه، وإقامة حجته على النّاس.

وثمرتها الهداية إلى الحق، والتحبيب فى عمل الخير، والتنفير من الشر، والإخراج من الظلمات إلى النور، بدعوة النّاس إلى دين الله، وتحكيم منهجه، وإفراده بالعبادة والاستعانة[1]

وهى من أشرف الأعمال، قال جل شأنه:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[2]

وسوف أبذل قصارى جهدى فى أن يشتمل هذا الكتاب أكبر قدر من الآيات الكريمة التى تبين أسس الدعوة ووسائلها فى القرآن الكريم؛ لأن القرآن مصدر الإسلام الأول، والذى ترجع إليه كل القيم والموازين، وقد حوى من حقائق النفس والحياة والغيب مالا غنى عنه لدعاة الحق، فى أسلوب معجز:

﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾[3] والقرآن

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[4]

وأخباره ومواعظه، وأوامره ونواهيه، وتوجيهاته وتشريعاته كلها حق وخير وعدل

---

(١) المصدر السابق، ص ٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٣) سورة هود عليه السلام، والآية: ١.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

وحكمة، ورحمة ومصلحة، وهى لإسعاد البشر أفراداً وأمماً، وجماعات ودولاً، وشعوباً وقبائل، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾[1].

وقد أقام القرآن الكريم الخطوط الأساسية للحياة الإنسانية، كما يريدها الله ـ سبحانه وتعالى ـ وبين الأهداف الضابطة للأخلاق، الدافعة للعمل، لرد النفس إلى فطرتها بمنهج يحفظ لكل من الروح والعقل والبدن حقه الكامل من غير تفريط أو إفراط، مراعياً التنسيق بين التكليف والطاقة بلا مشقة ولا إعنات، سمة المنهج السليم فى التربية والإعداد.

وقد خاطب القرآن الكريم الإنسان لإقناع عقله، وتحريك قلبه، وإيقاظ وجدانه، وإقامة الحجة والبرهان، وحثه على التدبر، قال تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[2].

* * *

(١) سورة النساء، الآية: ١٧٤.

(٢) سورة محمد صلى الله عليه وسلم، الآية: ٢٤.

الفصل الثالث

أسس الدعوة فى الإسلام

الإسلام يتكون من أصول وفروع، حيث تتفق أصوله مع أصول سائر دعوات الرسل السابقين ـ عليهم وعلى رسولنا أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ وتختلف الفروع عنها، قال جل شأنه:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[1]

ويقول تعالى:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[2].

يقول الإمام الرازى: «إن الآيات التى تدل على التباين بين الرسالات تشير إلى الفروع الخاصة بكل دين، أما الآيات التى تدل على عدم التباين فهى تتعلق بالأصول فقط»[3].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٣) مفاتيح الغيب ج ٣ ص ٦٠٨.

والأصول الواحدة التى اتفقت عليها كل الشرائع تشتمل التوحيد، وإثبات البعث، وأصول العبادات، ومكارم الأخلاق، وأن الفروع هى الشرائع الخاصة بكل ملة على حدة، قال تعالى:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾[1]

وقد ورد فى السنة المشرفة مايحمل لنا أسس الدعوة الإسلامية الخاتمة وأركانها فى حديث جبريل المشهور الذى صرحت بعض رواياته أنه كان فى آخر عصر النبى صلى الله عليه وسلم ـ حتى قال الإمام الحافظ ابن حجر: «لعله كان بعد حجة الوداع، ذلك أنهم لما هابوا سؤاله ﷺ وأراد الله تعالى قبل أن يقبض رسوله إليه أن يعلمهم جملة دينهم، وأن يجمع لهم فى مجلس واحد ماتفرق من مقاصد الدعوة الإسلامية فى عشرين سنة قضاها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أظهرهم بعث جبريل ـ عليه السلام ـ ليسأل النبى ﷺ وهم يسمعون عنه[2]:

(أ) الإسلام وشرائعه.

(ب) والإيمان وأركانه.

(جـ) والإحسان ووسائله.

وهذه الثلاثة هى الأسس التى قامت عليها الدعوة الإسلامية التى حمل عبء تبليغها إمام الدعاة وخاتم المرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ويحملها من بعده

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى، ج ١ ص ١٣٠ ـ ١٣٢.

أئمة الهدى اقتداء به، وتبليغهم لدعوته، وهى بجملتها وتفصيلها تبين لنا مايجب معرفته وبيانه فى:

(أ) قضايا الألوهية.

(ب) وقضايا النبوة.

(جـ) وقضايا اليوم الآخر.

(د) وقضايا السلوك الإنسانى فى الحياة[1].

نص الحديث كما فى صحيح البخارى

يروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان بارزاً يوماً للنّاس فأتاه جبريل وقال له: ما الإيمان؟

قال: الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث.

فقال جبريل: ما الإسلام؟

قال: أن تعبد الله ولاتشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان.

قال: ما الإحسان؟

قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك؟

قال: متى الساعة؟

قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها:

---

(١) فصول فى الدعوة الإسلامية ص ٥٠، ٥١ د. حسن عيسى عبد الظاهر.

إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان.

فى خمس لايعلمهن إلا الله. ثم تلا النبى ﷺ :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[1]

ثم أدبر فقال: ردوه. فلم يروا شيئاً، فقال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم.[2]

وقد روى هذا الحديث الخمسة إلا البخارى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لايرى عليه أثر السفر، ولايعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ[3].

ولفظ رواية النسائى: حتى سلم من طرف السماط ـ بكسر السين ـ: الصف من النّاس، يريد أنه سلم قبل أن يغشى المجلس ـ قال: السلام عليك يامحمد، أدنو؟ فرد عليه السلام قال: ادنه، فما زال يقول: أدنو؟ ـ مراراً ويقول: ادنه حتى... إلخ.

فلم يفت جبريل أدب التحية والاستئذان، وإنما خاطب الرسول باسمه لأن مقام التعمية والإغراب اقتضى ذلك.

فأسند ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه.

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

(٢) صحيح البخارى ج ١ ص ١٩، ٢٠ كتاب الإيمان. باب سؤال جبريل. وقد أخرجه مسلم فى صحيحه عن عمر، وهو أول حديث فى صحيح مسلم، وأخرجه أبو داود فى باب القدر من كتاب السنة، وأخرجه الباقون فى كتاب الإيمان.(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ١٥٧، ١٥٨.

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

ولفظ رواية النسائى عن أبى هريرة: حتى وضع يديه على ركبتى النبى ﷺ وكذلك رواه ابن خزيمة فى صحيحه، كما نقله الحافظ ابن حجر فى فتح البارى قال: فتخطى حتى برك بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم كما يجلس أحدنا فى الصلاة، ثم وضع يده على ركبتى النبى ﷺ (١).

وهذا الحديث من الأحاديث الجامعة لأبواب الشريعة المطهرة، من أعمال العبادات الظاهرة والباطنة، وهو يجمع أنواعاً من العلوم والمعارف، والآداب، واللطائف، بل هو أصل الإسلام، وأس الإيمان، فقد اشتمل على شرح الإسلام، والإيمان، والإحسان، والقدر، وأشراط الساعة، فأحاط بجميع وظائف العبادات الظاهرة: من عقود الإيمان، وأعمال الجوارح، والتحفظ من آفات الأعمال، فكأن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه(٢).

وقد أنزل كثير من المحدثين هذا الحديث بالنسبة للسنة منزلة سورة الفاتحة بالنسبة للقرآن. يقول القرطبى: هذا الحديث يصلح أن يقال له أم السنة.

ويقول القاضى عياض: اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة: من عقود الإيمان ابتداء وحالاً ومآلاً، ومن أعمال الجوارح، ومن إخلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال، حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه، ومتشعبة منه(٣).

وقد كان جبريل ـ عليه السلام ـ فى جلسته جامعاً بين آداب التوقير والاحتشام، وبين جرأة الملاطفة، وكأنّ جبريل ـ عليه السلام ـ أراد بهذه المفارقات كلها استدعاء الحاضرين للحديث؛ حتى لايفوتهم شىء من العلوم التى سيتضمنها السؤال والجواب.

---

(١) فتح البارى ج١ ص ١٣١ وما بعدها.

(٢) من روائع الأدب النبوى ص ٢٠٠ الدكتوركامل سلامة الدقس.

(٣) عمدة القارى ج ١ ص ٢٩١.

وفى حديث أبى هريرة: البدء بالسؤال عن الإيمان والإسلام، والترتيب غير مقصود، فلذا لم يعن الرواة بضبطه.

فقال رسول الله ﷺ :

الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا.

قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه.

وقد فسر الإسلام هنا بمعناه العلمى فقط ـ كما هو أصل حقيقته ـ وقيد الحج باستطاعة السبيل ولم يقيد بقية الأركان بالاستطاعة، مع أنَّ الاستطاعة شرط سائر التكاليف؛ تنبيهاً بذلك على أنَّ للحج استطاعةً خاصةً تختلف باختلاف المكلفين، ويخفى أمرها على كثير من النَّاس فيوكل فيها كل امرىء إلى دينه.

هذا والمذكور هنا ليس كل شرائع الإسلام، فإما أن يكون النبى ﷺ عرَّف الإسلام بأهم أجزائه، وإمَّا أن يكون الاقتصار من بعض الرواة، إذ فى حديث عمر نفسه عند أبى داود فى رواية: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان، والاغتسال من الجنابة[1].

وفى رواية عن عمر أيضاً أخرجها ابن خزيمة فى صحيحه زيادة العمرة، والاغتسال من الجنابة، وإتمام الوضوء[2].

وفى أخرى عنه أخرجها أبو عوانة فى صحيحه بعد قوله: «وتؤتى الزكاة» قال: فذكر عرى الإسلام.

فيؤخذ من هذه الروايات أنَّ النبى ﷺ ذكر شرائع الإسلام كلها، فكان منهم من حفظ ووفى، ومنهم من نسى أو اكتفى.

---

(١) سنن أبى داود.

(٢) صحيح ابن خزيمة.

قال: فأخبرنى عن الإيمان، قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال : صدقت.

ففسر ﷺ له الإيمان بمعناه الاعتقادى فقط، أى: الإيمان القلبى كما هو أصل حقيقته وهو الموجب للعقائد كلها على ترتيب: المبدأ، فالواسطة، فالمعاد، أى: الألوهية، والنبوه، واليوم الآخر. ثم إنه فصّل الواسطة مرتبة أيضاً، فبدأ بحاملى الوحى الملائكة ـ وثنى بالواجب المحمول. كسبه ـ وثلث بالمحمول إليهم رسله[1].

قال: فأخبرنى عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

والإحسان يستعمل استعمال اللازم، فيقال: أحسن: أى فعل فعلاً حسناً. ويستعمل متعدياً بنفسه، فيقال: أحسن عمله، أى: أتقنه وجوّده، وهو المراد هنا؛ لأنه يرجع إلى إتقان العبادة ومراعاة الله ومراقبته[2].

ويستعمل متعدياً بالحرف، فيقال: أحسن إلى النّاس، أى: وصّل إليهم المعروف.

فكلمة (الإحسان) كلمة جامعة لكل أفعال الخير: مع الله، ومع النفس، ومع النّاس، بحيث يستقيم بها منهج الحياة للفرد والمجتمع فى إطار الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر.

ولما كان مقصود السائل معرفة الطريق إلى الإحسان عدل ﷺ بالجواب إلى هذه الصيغة المتضمنة بيان وسيلة الإحسان، وتلك الوسيلة هى أن يكون العامل فى عمله كأنما يرى الحق ـ سبحانه ـ رأى العين، ولاريب أنّ من يكون كذلك يكون عمله أحسن الأعمال، وحاله أكمل الأحوال قلباً وقالباً.

لكن لما كانت حقيقة المشاهدة فى الدنيا ضرباً من المحال بإجماع المسلمين

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٢) انظر فصول فى الدعوة الإسلامية. د. حسن عيسى عبد الظاهر ص ٥٣، ٥٤.

فتلك الحال التى تشبه المشاهدة إن بنيت على مجرد فرض المشاهدة، وكانت عسيرة الحصول، سريعة الزوال لاعتمادها على محض الخيال وفرض المحال فهل من طريق آخر يوصل إليها ويعين على التحقيق بها؟

ذلك هو ماأشار إليه ـ ﷺ ـ بقوله: فإن لم تكن تراه فإنه يراك. أى: كأنك تراه؛ لأنه من حيث لاتراه فعلمك برؤيته إياك يبعثك على أن تكون فى معاملتك بحال تشبه رؤيتك إياه.

فَشأن المؤمن إن أراد أن يكون من أهل الإحسان فى العمل أن يشعر قلبه أن عين الله تراقبه فى خلوته وجَلْوتِه.

فإذا أشعرت نفسك مراقبة الله إياك بسمعه وبصره راقبته أنت أيضاً بقلبك وفكرك، وهذه المراقبة القلبية أخت المشاهدة الحقيقية؛ لأنّها شهود بالبصيرة.

كما أن تلك شهود بالبصر، وبها تجنى من ثمرات الإحسان ماكنت تجنيه لو كنت شاهد عيان، لأنها تورثك الاستحياء من الله على قدر قربه وهيبته، فلا تجعله أهون الناظرين إليك.

وتورثك الخشية منه على قدر قدرته، فلا تجعله أضعف الحاكمين عليك، بل تضاعف همتك فى التماس أقرب الطرق إلى رضاه؛ حتى تكون ممن يعبد الله كأنه يراه.

ويقول الإمام النووى[1]: «هذا من جوامع الكلم التى أوتيها ـ ﷺ ـ لأنّا لو قدرنا أنّ أحدنا قام فى عبادة وهو يعاين ربه ـ سبحانه وتعالى ـ لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به، فقال ـ ﷺ ـ : اعبد الله فى جميع أحوالك، كعبادتك فى حال العيان؛ فإنّ التتميم المذكور فى حال العيان إنّما كان لعلم العبد باطلاع الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه، ثم قال: وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد، فينبغى أن يعمل بمقتضاه».

---

(١) انظر: شرح النووى على صحيح مسلم ج ١ ص ١٥٧ ، ١٥٨.

ثم قال النووى أيضا: «وهذا القدر من الحديث أصل عظيم من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصديقين، وبغية السالكين، وكنز العارفين، ودأب الصالحين، وهو من جوامع الكلم التى أوتيها ـ ﷺ »[1].

فالمراد بالإحسان: الاخلاص، فإنّه غاية الاستحسان، وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم،فى مواضع متعددة، تارة مقروناً بالإيمان كقوله تعالى:

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[2]

وتارة مقروناً بالإسلام قال جل ذكره:

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾[3]

وتارة مقـرونـاً بالتقـوى:

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[4].

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن النبى ـ ﷺ ـ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى فى الجنة، ولفظ الحديث: عن صهيب عن النبى ـ ﷺ ـ قال:

«إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١ ص ١٢٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٣.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٢.

(٤) سورة يونس عليه السلام، الآية: ٢٦.

فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النّار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»[1].

وهذا التفسير للآية مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان، قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[2] لأن الإحسان أن يعبد المؤمن ربه فى الدنيا على وجه الحضور والمراقبة، كأنه يراه بقلبه، وينظر إليه فى حال عبادته، فكان جزاء ذلك النظر إلى وجه الله تعالى عياناً فى الآخرة[3].

هذا وقد تبين أن هذه الأسئلة الثلاثة عن (الإسلام والإيمان والإحسان) قد جمعت علوم الدين وأركان الدعوة كلها ظاهرها وباطنها ـ أصولاً وفروعاً ـ فلا شيء مما يعنى المرء فى دينه إلاّ وهو داخل تحت الإيمان أو الإسلام أو الإحسان، وبقى قسم المجهولات التى لاسبيل إلى علمها، وكما أنّ من الدين أن تعلم مايمكن علمه، فمن الدين أيضاً أن تقول فيما لاتعلم: الله يعلم. وهذا القسم هو مانبه عليه جبريل ـ عليه السلام ـ بسؤاله الرابع والأخير.

قال: فأخبرنى عن الساعة: قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. أى: أخبرنى عن الساعة متى هى؟

زاد النسائى عن أبى هريرة: قال: فنكس ـ أى: أطرق النبى ـ ﷺ ـ برأسه فلم يجبه شيئاً، ثم عاد فلم يجبه شيئاً، ثم رفع رأسه[4].

قال ﷺ : ما المسئول عنها بأعلم من السائل، أى: لست أعلم بها منك، وإنما

---

(١) صحيح مسلم ١٦٣/١، ورواه أحمد فى المسند ٣٣٣/٤ وذكره السيوطى فى الدر المنثور ٣٠٥/٣.

(٢) سورة الرحمن؛ الآية: ٦٠.

(٤) من روائع الأدب النبوى: الدكتور كامل سلامة الدقس ص ٢١٥.

(٤) سنن النسائى.

عبر بالمسئول والسائل للتعميم، أى: أنا وأنت وكل سائل وكل مسئول من الخلق سواء فى العلم بها، فهم وإن علموا أنّها آتية لاريب فيها لايعلم أحد منهم أيان مرساها؛ لأنه تعالى قد أخفى علم وقتها حتى على الأنبياء والملائكة.

قال: فأخبرنى عن أماراتها؟ قال: أن تلد الأمة ربتها[1].

وقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً فى معنى ذلك، فمنهم من قال:

١ـ معناه اتساع الإسلام واستيلاء أهله على بلاد الشرك وسبى ذراريهم، فإذا ملك الرجل الجارية واستولدها كان الولد منها بمنزلة ربها، لأنّه ولد سيدها. قال النووى وغيره: إنه قول الأكثرين[2].

٢ـ وقيل معناه أن تلد العجم العرب. وذلك أن تلد الإماء الملوك، فتصير الأم من جملة الرعية، والملك سيد رعيته.. ولكن رواية (رَبَّتَهَا) بتاء التأنيث قد لايساعد على هذا الفهم[3].

٣ـ وقيل: إن إطلاق (ربها) على ولدها مجاز؛ لأنه لما كان سبباً فى عتقها بموت أبيه أطلق عليه ذلك.

٤ـ وقيل: ذلك كناية عن فساد الزمان، وكثرة عقوق الأولاد للأمهات، حتى كأن المرأة بدل أن تلد الابن البار أو البنت البارة التى تتقرب إلى الله تعالى بخدمتها، أو الذى يرى الجنة تحت أقدامها ـ تلد من الأولاد من يتحكم فيها ويرى لنفسه حق السيادة عليها، كأنه سيدها وهى أمته. فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الإهانة. بالسب والضرب والاستخدام، فأطلق عليه (ربها) مجازاً لذلك.

وهذا الوجه يحمل وجاهته؛ لأنّ الواقع يؤكده؛ لأننا نرى كثرة العقوق للوالدين من الأبناء والبنات، ووصل الأمر ببعض الأبناء أن يخرِجَ الابن أباه من منزله

---

(١) فصول فى الدعوة ص ٥٦.

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم ١/١٥٧، ١٥٨.

(٣) من روائع الأدب النبوى ص ٢٢١.

ويتركه فى مستشفيات العجزة، وأصبحت هذه ظاهرة منتشرة فى بعض البلاد العربية والإسلامية.

وقد اختار هذا الرأى ورجحه بعض أهل العلم من المعاصرين[1] فقال: «وهذا عندى أوجه الأوجـه جميعاً؛ لعمومه، ولأنَّ المقام يدل على أن المراد حالة تدل على فساد الأحوال، وانتكاس الأمـور بحيث يصير المربّـى مـربّـيا، والسافل عالياً. وهو مناسب للأمارة أو العلامة الأخرى من علامات الساعة مثل قوله: «وأن الحفاة العراة رِعاة الشّاء، يتطاولون فى البنيان».

وفى حديث أبى هريرة: وإذا كان الحفاة العراة الصم البكم ـ أى الجهلاء ـ ملوك الأرض.

والمعنى الذى يجتمع من هذه الروايات: أن أهل الحاجة والفاقة وأهل الجهل والغباوة ـ يصيرون إلى بسطة فى الدنيا وسعة فى المال والجاه حتى يتنافسوا فى رفع القصور ويصبحوا رءوس النّـاس وملوك الأرض.

هذا وأول أشراط الساعة على الإطلاق هو بعث النبى ـ ﷺ ـ كما يشير إليه حديث الشيخين «بعثت أنا والساعة كهاتين»[2] يشير إلى إصبعيه الوسطى والتى تلى الإبهام إيماء إلى شدة قربها الزمانى لما مضى من عمر الدنيا، أو اتصالها بنبوته، على معنى أنه هو آخر الأنبياء، وأمته آخر الأمم، فلا يأتى بعده نبى وشرع جديد بينه وبين الساعة، ثم يأتى من بعد ذلك أشراط كثيرة بينتها السنة[3].

منها ماهو متصل بالساعة بالأمارات الكبرى أو القريبة.

ومنها ماهو قبل ذلك ويسمى بالأمارات الصغرى أو البعيدة كالمذكور فى هذا الحديث، وكلا النوعين يرجع إلى أصل واحد وهو انعكاس الأمور وانقلاب النظام،

---

(١) انظر: الدكتوركامل سلامة الدقس: من روائع الأدب النبوى ص ٢٢١.

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير فى علم التفسير ج ٣ ص ١٢٩.

(٣) فصول فى الدعوة ص ٥٧.

غير أنه فى النوع الأول انعكاس فجائى مادى يتغير بعده نظام الكون كله: أرضه وسمائه.

وفى النوع الثانى: انعكاس معنوى تدريجى تتغير فيه قواعد الاجتماع وصور الأخلاق واتجاه العلوم، فترى الأمور مسندة إلى غير أهلها يتولاها شرار النّاس وأراذلهم، ويتحكم فى أعاليها أسافلها، وتنتشر ألوان الفسوق وفنونه وفشو الجهل بالله وكتابه وحلاله وحرامه، وتتقدم علوم الدنيا حتى يظن أهلها أنهم قادرون عليها ويطمئنون إليها قال جل ذكره:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]

على أن هذا الانقلاب المعنوى قد لايسير حثيثاً ولايأخذ خطّاً مستقيماً، بل يقع فيه المد والجزر، فتهب ريح الحق فى الوقت المحدود،

﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾[2].

زاد الشيخان فى حديث أبى هريرة: فى خمس لايعلمهن إلاّ الله

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا

(١) سورة يونس عليه السلام، الآية: ٢٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٧.

تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[1]

وقال القرطبى: «المقصود الإخبار عن تبدل الحال بأن يستولى أهل البادية على الأمر، ويتملكوا البلاد بالقهر، فتكثر أموالهم، وتنصرف هممهم إلى تشييد البنيان والتفاخر به»[2].

وقال راوى الحديث (عمر رضى الله عنه) بعد كل هذا: (ثم انطلق، فلبثت مليًا) وفى رواية أبى هريرة «ثم أدبر، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: ردوه. فلم يروا شيئاً فقال: هذا جبريل جاء يعلم النّاس دينهم».

وإسناد التعليم إلى جبريل مجازى؛ لأنه كان السبب فى الجواب، فذلك أمر بالأخذ عنه.

والسر فى مجىء جبريل ـ عليه السلام ـ على هذا الوجه زيادة التعمية عليهم، حتى أن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يعرفه، وقد جاء لينبههم أن يسألوا رسولهم عمّا فيه فائدة لهم فى دينهم: من معنى الإيمان والإسلام والإحسان، فيقيسوا عليها السؤال المهم من الأحكام، ولايسترسلوا فى السؤال عن غير المهم[3].

* * *

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤ وانظر تفسير زاد المسير ج ٦ ص ٣٣٠، وتفسير الطبرى ج ١ ص ٨٧ والدر المنثور ج٥ ص ١٦٩، وأسباب النزول للواحدى ص ١٩٩ وتفسير ابن كثير فى تفسير الآية

(٢) فتح البارى ج١ ص ١٣١.

(٣) من روائع الأدب النبوى ص ٢٢٣.

الفصل الرابع

أسس الدعوة فى قصص القرآن الكريم

امتاز القصص القرآنى الكريم بسمو غاياته وشريف مقاصده وعلو مراميه، فقد اشتمل على فصول فى الأخلاق، مما يهذب النفوس ويجمل الطباع وينشر الحكمة والآداب.

وعلى طرق شتى فى التربية والتهذيب، تساق القصة أحياناً مساق الحوار، وطوراً مسلك الحكمة والاعتبار، وتارة مذهب التخويف والإنذار.

كما حوى القصص القرآنى الكريم كثيرا من تاريخ الرسل مع أقوامهم، والشعوب وحكامهم، وشرح أخبار قوم هدوا فمكن الله لهم فى الأرض، وأقوام ضلوا فساءت حالهم وخربت ديارهم، ووقع عليهم العذاب والنكال، يضرب بسيرهم المثل، ويدعو الناس إلى العظة والاعتبار.

كل هذا وغيره قصه الله فى قول بيّـن، وأسلوب حكيم، ولفظ رائع، وافتنان عجيب ليدل النّـاس على الخلق الكريم، ويدعوهم إلى الإيمان الصحيح، ويرشدهم إلى العلم النافع، وقد خلق الله العلى القدير الإنسان وجعله مستعداً للعلم والانتفاع بما خلق الله فى الكون؛ ليكون خليفة فى الأرض يعمرها، ويكون بعلمه مظهراً لرحمة الله بعباده، وليخلق فيه روح المكافحة والنضال، خلقه مستعداً أيضاً للتأثر بداعية الخير وداعية الشر، وبين له أن عاقبة التأثر بداعية الخير السعادة والحياة ذات الجلال والبهاء، وعاقبة التأثر بداعية الشر الشقاء والعذاب الأليم[1].

(١) قصص الأنبياء مع أقوامهم والعبر المستفادة فى سورة الأعراف، د. البدرى عاطف ص (ب).

ولذلك كان الإنسان فى حاجة إلى من يقيه ويحفظه من دواعى الشر، وعلى هذا المبدأ أرسل إليه الرسل، وأنزل الكتب تذكيراً بما يسعده وتنفيراً مما يشقيه، وما من بقعة عمرت على ظهر الأرض إلاّ وجاء أهلها رسول من عند الله العلى. قال تعالى:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

وهؤلاء الرسل ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ كانوا يدعون النّـاس إلى عبادة الله الواحد القهار، وتنظيم المجتمع على دعائم من التعاون والتراحم والبر والعدل؛ لتتجه البشرية كلها فى كل زمان ومكان نحو المثل العليا فى دينها ودنياها.

ولقد تحمل الرسل الكرام فى دعوتهم النّـاس إلى عبادة الله وحده لاشريك له، الأذى والاضطهاد ـ فصبروا ولم يهنوا ولم يضعفوا، بل استمروا يدعون النّـاس بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الإيمان برسالات السماء حتى أثمرت دعوتهم، وعرف البشر طريق الهداية والنور.

إنّ قصص الأنبياء جدير بإمعان الفكر، بما فيه من نهاية المكذبين لآيات الله البينات بعد أن تبين لهم على يد رسله الكرام الرشد من الغى والنور من الظلام، وفيه أيضاً العاقبة الطيبة لمن آمن بالله ورسله وبدعواتهم.

والداعون إلى الله محفوظون أينما كانوا كما وعد الله برعايته وعنايته، فليعتصموا بحبله وليثقوا بنصره، قال تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢)

وبهذا مضت سنة الله فى الأولين، وهى سنة باقية محكمة إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

(٢) سورة يوسف عليه السلام، الآية: ٢١.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (١)

وقال تعالى:

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢)

وقال جل شأنه:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٣)

إن فى قصص القرآن تحبيباً للنّـاس جميعاً وخاصة الدعاة إلى الله، فى أسلوب الموعظة القصصية فى القرآن الكريم، وفيه حمل للنّاس على الاستفادة من هدى القرآن ومنهجه القويم.

إن خاصية الإيجاز المعجز فيما أورده القرآن الكريم من أنباء وأخبار وأحاديث الرسل، والأمم القديمة والأيام الغابرة من الخصائص الجديرة بأن تلفت النظر، وأن يطول التأمل فيها ثم الكلام عليها.

والحديث عن قصص القرآن يقتضينا أن نعرف المقصود من القصة فيما يأتى:ـ

مفهوم القصة فى القرآن الكريم:

ظهر لنا من خلال الصفحات الماضية أن القرآن الكريم حوى كثيراً من أخبار الأمم الماضية، فذكر حياتهم ونشاطهم، وبين عقائدهم ومذاهبهم، وبين مواقفهم من رسل الله إليهم، وبذلك اشتمل القرآن على مادة غزيرة مباركة للقصة القرآنية المشتملة على الأحداث والأشخاص والزمان والمكان.

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٧١ـ ١٧٣.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢١.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤٠.

ولعلماء الإسلام آراء حول لفظة (القصص)، حيث وضحوا المراد منها.

يقول محمد بن أبى بكر الرازى:[1] إن أصل المادة «قصص» مشتق من قص أثره، أى: تتبعه، والقصة واحدة القصص: هى الأمر والحديث، يقال اقتص الحديث: رواه على وجهه. وقص عليه الخبر. والاسم: القصص ـ بالفتح ـ وضع موضع المصدر، والقصة التى تكتب.

ويقول صاحب المصباح: «قصصت الخبر: حدثت به على وجهه، والاسم القصص ـ بفتحين ـ وقصصت الأثر: تتبعته»[2] فترى أن مفهومها اللغوى يدور حول المتابعة لأمر، والحديث عنه وروايته على وجه ورود كتابته على هذا النمط.

وهذا المفهوم اللغوى موجود فى القصة القرآنية؛ لأنّ الذى يقرأ القرآن يلحظ أن قصصه يتتبع أحداثاً ويسجلها مكتوبة على وجه ورودها بصورة حسنة[3].

قال تعالى:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[4]

وفى بيان هذه الآية قال الإمام الرازى: والقصص يحتمل أن يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص. ويجوز أن يكون من باب تسمية المفعول بالمصدر، فإن أريد الأول كان الحسن راجعاً إلى الاقتصاص من كون ألفاظها فصيحة بالغة فى الفصاحة حد الإعجاز، وإن أريد الثانى كان الحسن فى القصص لما فيها من العبر والنكت والحكم

(١) مختار الصحاح، مادة «قص» ص ١٨٧.

(٢) المصباح المنير، مادة «قص» ج ٢ ص ٧٢.

(٣) الدعوة الإسلامية: أصولها ووسائلها ص ٢٨٨.

(٤) سورة يوسف عليه السلام؛ الآية: ٣.

والعجائب التى ليست فى غيرها[1]. فنرى الرازى يدور بالحسن فى قصص القرآن بين ألفاظه ومعانيه، إلا أنه فى موضوع آخر يعرف القصة، فيقول: «والقصص»: هو مجموع الكلام المشتمل على مايهدى إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة[2] فيزيد على الحسن الذى تضمته القصص شيئاً آخر، إذ يثبت للقصة القرآنية قوة التأثير والهداية والإرشاد والإنجاء.

وبناء على ماتقدم يمكننا أن نقول: إن القصة القرآنية: هى كلام حسن فى لفظه ومعناه مشتمل على أحداث حقيقية سابقة، ومتضمن على مايهدى إلى الدين ويرشد إلى الخير[3].

ولايصح أن نطلق اسم الحكاية على القصة القرآنية؛ لأنَّ الحكاية يلاحظ فيها المحاكاة والوقوف على ماجرى، بغض النظر عن العبر التى فيها أو الاستفادة منها، كما أن الحاكى لايهدف التأثير والتوجيه من حكايته. أما القصة فهى تكشف عن آثار الماضى وتنقب عن حوادثه. وتعرضها فى أسلوب معجز مشتمل على العبرة والعظة؛ أخذاً بالعقل والوجدان إلى زمن القصة وأدوارها وأشخاصها مهما كانت كثيرة وبعيدة.

والقصة القرآنية تملك جميع عناصر القصة الفنية؛ فالمكان والزمان والأشخاص والحوادث موضوع الحوار كل ذلك واضح فيها، إلاَّ أنها لكونها هادفة تركز مرة على أحد هذه العناصر، ومرة أخرى على غيرها، وهكذا تراعى الهدف الذى تدعو إليه[4].

---

(١) مفاتيح الغيب ٥ ص ١٥٠.

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ٧٠٢.

(٣) الدعوة الإسلامية ص ٢٨٨.

(٤) الدعوة الإسلامية: أصولها ووسائلها ص ٢٨٩.

إن المتأمل فى قصص الأنبياء التى وردت فى القرآن الكريم يجدها قد اشتملت على الحجج الواضحة والبراهين والأدلة الدامغة للباطل المجلية للحق.

وقد ورد هذا البيان بأساليب متعددة وصور مختلفة، بحيث تناسب العقول المتفاوتة والأحوال المتباينة، حتى لايبقى مجال للشك، بحيث تؤدى إلى الإذعان والتسليم للحق، عدا حالات الكبر والعناد التى تحول معها ظلمة الجحود عن إظهار الاعتراف بالحق، أو هيمنة التقليد الأعمى على العقول التى تحجبها عن رؤية الحق[1].

معنى القصة اصطلاحاً:

أما القصة بالمعنى الاصطلاحى: فقد تفاوتت فيها عبارات رجال الفن والأدب المشهورين، فقد عرفها بعضهم بقوله «القصة: حكاية مصطنعة مكتوبة نثراً تستهدف إثارة الاهتمام، سواء أكان ذلك بتطوير أحداثها، أو بتصويرها للعادات والأخلاق، أو بغرابة أحداثها، وقد تتناول الحياة الريفية أو الحياة البطولية، وقد تكون أخلاقية، أو نقدية، أو فلسفية، أو تاريخية[2].

وجاء تعريفها فى قاموس «لتريه» هكذا: «القصة إما رواية واقعية حقيقية، وإما مصطنعة، أو حكاية ملفقة تستهدف إثارة الاهتمام بتصوير العواطف والمثل الأخلاقية، أو بغرابة أحداثها، ولكنها قد تكون نثراً وشعراً[3].

وقد عرفت أيضاً بأنها: سرد مشوق ذو غاية لأحداث وأعمال يقوم بها أشخاص معينون فى بيئة معينة[4].

ومما تقدم فى معنى القصة اللغوى والاصطلاحى نجد أن الصلة وثيقة، والمناسبة ظاهرة بين المعنى اللغوى والاصطلاحى، ذلك لأن معنى كل يدور حول التتبع والنقل واقتفاء الأثر أيا كان، إلا أن المعنى الاصطلاحى أخص من المعنى اللغوى،

---

(١) معالم الدعوة فى قصص القرآن الكريم ص ٢٤٧.

(٢,٣) القصة العربية القديمة ص ١٩، السيد/ محمد مفيد الشوباشى.

(٤) النصوص الأدبية ص ٢٧ الأستاذ/ كامل درويش.

مهمته بيان كل ما صدق عليه لفظ (المادة) بخلاف المعنى الاصطلاحى؛ لأنه يتبع عرفاً خاصّـاً هو عرف علماء الفن والأدب والقصة.

والمتأمل فى هذا التعريف للقصة يفهم منه أنها تتحدث عن أمور ربما تكون قد وقعت وربما لم تقع.

أما القصة فى القرآن الكريم :

فهى لاتتحدث إلا عن أمور قد وقعت بالفعل، وهى أسلوب تربوى من أساليب الإسلام يحمل بين طياته وجوانبه العظة والعبرة بما فيه من تبشير وتحذير، ووعد ووعيد، وأمر ونهى... ومن خاصيتها مايلى:

١ـ الإيجاز المعجز فيما أورده القرآن الكريم من أخبار وأنباء تتعلق بالأمم السابقة، وأحاديث الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ والأيام الغابرة.

٢ـ ومن خصائص القصة القرآنية اشتمالها على المعجزات والخوارق، فكل رسول بعثه الله له معجزة تشهد على صدقه.

٣ـ وتتميز القصة فى القرآن ببيان عقيدة التوحيد والبرهان عليها فى أسلوب قصصى معجز.

يقول أحد أهل العلم فى توضيح ذلك:

«والقصص القرآنى ـ من قبل أن نلقاه ـ قصص واقعى مصفى من كل شائبات الخيال، فكان مجيئه على تلك الصورة ملائماً للبيئة التى نزل فيها؛ إذ جاء مسامتاً لما اعتادته الأمة العربية فى حياتها من تسجيل الأحداث وتصوير الوقائع فى هذا اللون الملتزم للواقع، والواقف عند حدوده، ثم كان ملائماً للحياة كلها فى أزمنتها وأمكنتها؛ إذ كانت موارده كلها من عيون الحقيقة، ومن ينابيعها الصافية التى لاتتغير على الزمن، ولاتنزل عن مكانها من العقول على اختلاف منازلها، وتفاوت حظوظها من العلم والمعرفة.[1]

* * *

(١) القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه ص ٣٩، عبد الكريم الخطيب.

الفصل الخامس

أهداف القصة فى القرآن الكريم

إن كل فقرة فى كتاب الله الكريم لها معنى وربما معانى جمة، وفيها إصلاح للإنسان فى عقيدته وعبادته وأخلاقه، وقد قص المولى ـ جل شأنه ـ قصص السابقين، وبين ما كان من جهاد الرسل مع أعدائهم، حتى يثق أصحاب الحقوق والمبادىء بنصر الله لأوليائه، وأن الله تعالى ينصر من ينصر دينه:

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾[1]

وكل هذا القصص ـ طويله وموجزه ـ الهدف منه فى القرآن: هداية الضال وإرشاد الحائر، وتقويم المعوج، وأخذ العبرة والعظة والاستنارة بنور الله، قال جل شأنه:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١١١ ﴾[2]

والقصة فى القرآن الكريم لها أهداف دينية صادقة، مثل إثبات الوحى والرسالة، ووحدانية الله تعالى، وعاقبة الخير والشر، وغيرها من الأغراض الدينية.

يقول الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله تعالى:[3] «فإذا نحن استعرضنا هنا أغراض القصة القرآنية فإنما نثبت أهم هذه الأغراض وأوضحها، ونترك استقصاءها وتتبعها.

---

(١) سورة محمد عليه السلام، الآية: ٧.

(٢) سورة يوسف عليه السلام، الآية: ١١١.

(٣) التصوير الفنى فى القرآن/ سيد قطب ص ١١٨ فما بعدها.

١ـ كان من أغراض القصة إثبات الوحي والرسالة. محمد ﷺ لم يكن كاتباً ولاقارئاً، ولاعرف عنه أنه يجلس إلى أحبار اليهود والنصارى؛ ثم جاءت هذه القصص في القرآن ـ وبعضها جاء في دقة وإسهاب ـ كقصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى، فورودها في القرآن اتخذ دليلاً على وحي يوحى.. والقرآن ينص على هذا الغرض نصّاً في مقدمات بعض القصص أو في ذيولها.

جاء في أول سورة «يوسف»:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ ﴾[1]

وجاء في سورة القصص قبل عرض قصة موسى:

﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ ﴾[2]

وبعد انتهائها:

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٤٤ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٤٥ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٤٦ ﴾[3]

---

(١) سورة يوسف عليه السلام، الآيتان: ٢ ، ٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٣.

(٣) سورة القصص الآيات: ٤٤ ـ ٤٦.

وجاء فى سورة آل عمران فى أثناء عرضه لقصة مريم:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[1]

وجاء فى سورة (ص) قبل قصة آدم:

﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ ﴾[2]

وجاء فى سورة «هود» بعد قصة نوح:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾[3]

٢ـ وكان من أغراض القصة فى القرآن: بيان أن الدين كله من عند الله، من عهد نوح إلى عهد محمد، وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة، والله الواحد رب الجميع؛ وكثيراً ماوردت قصص عدد من الأنبياء فى سورة واحدة، معروضة بطريقة خاصة، لتؤيد هذه الحقيقة، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ماجاء فى سورة الأنبياء، فقد ورد فيها ذكر موسى وهارون وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ولوط ونوح، وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذى الكفل وذى النون وزكريا، ومريم وابنها عيسى، ثم قال تعالى بعد سرد قصص هؤلاء الأنبياء:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٤.

(٢) سورة ص، الآيات: ٦٧ ـ ٧١.

(٣) سورة هود عليه السلام: ٤٩.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [1].

وهذا هو الغرض الأصيل، من هذا الاستعراض الطويل، وغيره من الأغراض الأخرى يأتى عرضاً وفى ثناياه [2].

٣ـ بيان أن الدين كله موحد الأساس ـ فضلا على أنه كله من عند إله واحد ـ وتبعاً لهذا كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة كذلك. مكررة فيها العقيدة الأساسية، وهى الإيمان بالله الواحد على نحو ماجاء فى سورة الأعراف:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ الخ [3]

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ .. ﴾ . الخ [4]

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ . الخ [5]

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ.. ﴾ [6]

فهذا التوحيد لأساس العقيدة يشترك فيه جميع الأنبياء فى جميع الأديان، وترد قصصهم مجتمعة، فى هذا السياق؛ لتأكيد ذلك الغرض الخاص.

٤ـ وكان من أغراض القصة بيان أن وسائل الأنبياء فى الدعوة موحدة، وأن استقبال قومهم لهم متشابه ـ فضلا على أن الدين من عند إله واحد، وأنه قائم على أساس واحد ـ وتبعاً لهذا كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة أيضاً،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.

(٢) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٢١ بتصرف

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٦٥.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٧٣.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

مكررة فيها طريقة الدعوة، على نحو ماجاء فى سورة «هود»:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾[1]

وإلى أن يقولوا له:

﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾[2]

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾

إلى قوله:

قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ الخ[3]

---

(١) سورة هود عليه السلام؛ الآيات: ٢٥ ـ ٢٧.

(٢) سورة هود عليه السلام، الآية: ٣٢.

(٣) سورة هود عليه السلام، الآيات: ٥٠ ـ ٥٥.

كما عرضت سورة هود طريقة صالح فى الدعوة إلى الله تعالى حيث يقول ـ جل ذكره ـ:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾[1] ... الخ [2]

٥ـ وكان من أغراض القصة بيان الأصل المشترك بين دين محمد ودين إبراهيم بصفة خاصة، ثم أديان بنى إسرائيل بصفة عامة، وإبراز أن هذا الاتصال أشد من الاتصال العام بين جميع الأديان، فتكررت الإشارة إلى هذا فى قصص إبراهيم وموسى وعيسى:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾[3]

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[4]

ويقول تعالى عن عيسى عليه السلام:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ

إلى أن يقول:

---

(١) سورة هود عليه السلام، الآيتان: ٦١ ، ٦٢.

(٢) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٢٣.

(٣) سورة الأعلى، الآيتان: ١٨ ، ١٩.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[1]

٦ـ من أغراض القصة بيان أن الله ينصر أنبياءه فى النهاية ويهلك المكذبين، وذلك تثبيتاً لمحمد ﷺ وتأثيراً فى نفوس من يدعوهم إلى الإيمان:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾[2]

وتبعا لهذا الغرض كانت ترد قصص الأنبياء مجتمعة، مختومة بمصارع من كذبوهم.

ويتكرر بهذا عرض القصص كما جاء فى سورة «العنكبوت» : قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[3]

وقال تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ

---

(١) سورة المائدة، ٤٨.

(٢) سورة هود عليه السلام: ١٢٠.

(٣) سورة العنكبوت، الآيتان: ١٤ ، ١٥.

عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١)

وتلك هى النهاية الواحدة للمكذبين، ولقد ظلموا أنفسهم بإقامتهم على المعاصى(٢).

٧ـ وكان من أغراض القصة تصديق التبشير والتحذير، وعرض نموذج واقع من هذا التصديق كالذى جاء فى سورة «الحجر» قال تعالى:

﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ (٣)

فتصديقاً لهذا وذلك جاءت القصص على النحو التالى: (٤)

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾(٥) ... إلخ.

وفى هذه القصة تبدو «الرحمة» ثم قال تعالى فى آية أخرى من السورة نفسها:

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ

(١) سورة العنكبوت الآيات: ٣٦ ـ ٤٠.

(٢) زاد المسير فى علم التفسير ج ٦ ص ٢٧٢.

(٣) سورة الحجر، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

(٤) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٢٤.

(٥) سورة الحجر؛ الآيات: ٥١ ـ ٥٣.

﴿ ٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤ ﴾ [1]

وفى هذه القصة يبدو «العذاب الأليم» للمكذبين.

وهكذا يصدق الإنباء، ويبدو صدقه فى هذا القصص الواقع، بهذا الترتيب [2].

٨ ـ ومن أغراض القصة بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه، كقصص سليمان وداود وأيوب وإبراهيم ومريم وعيسى وزكريا ويونس وموسى، فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة فى مواقف شتى، ويكون إبرازها هو الغرض الأول، وما سواه يأتى فى هذا الموضع عرضاً.

٩ـ وكان من أغراض القصة: تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصة أروع وأقوى، وأدعى إلى الحذر الشديد من كل هاجسة فى النفس تدعو إلى الشر، وإسنادها إلى هذا العدو الذى لا يريد بالناس الخير.

ولما كان هذا موضوعاً خالداً، فقد تكررت قصة آدم فى مواضع شتى.

١٠ـ وكان للقصة أغراض أخرى منها :

ـ بيان قدرة الله على الخوارق: كقصة خلق آدم، وقصة مولد عيسى. وقصة إبراهيم والطير الذى آب إليه بعد أن جعل على كل جبل منه جزءاً. وقصة (الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها) وقد أحياه الله بعد موته مائة عام [3]

ـ وبيان عاقبة الطيبة والصلاح، وعاقبة الشر والإفساد، كقصة ابنى آدم.[4] وقصة

---

(١) سورة الحجر، الآيات: ٨٠ ـ ٨٤.

(٢) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٢٥ ,١ـ انظر الآيتين: ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، من سورة البقرة.

(٣) انظر الآيات: ٢٧ ـ ٣٢ من سورة المائدة.

(٤) انظر الآيات: ٣٢ ـ ٤٣ من سورة الكهف.

صاحب الجنتين[1] وقصص بنى إسرائيل بعد عصيانهم. وقصة سد مأرب[2] وقصة أصحاب الأخدود[3].

ـ وبيان الفارق بين الحكمة الإنسانية القريبة العاجلة، والحكمة الكونية البعيدة الآجلة، كقصة موسى مع (عبد من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً)[4].

إلى آخر هذه الأغراض الوعظية، التى كانت تنساق لها القصص فتفى بمغزاها[5]

* * *

(١) انظر الآيات : ٣٢ ـ ٤٣ من سورة الكهف.

(٢) انظر الآيات: ١٥ ـ ٢٠ من سورة سبأ.

(٣) انظر الآيات: ٤ ـ ١١ من سورة البروج.

(٤) انظر القصة فى الآيات: ٦٥ ـ ٨٢ من سورة الكهف.

(٥) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٢٦.

الفصل السادس

حكمة تكرار القصة فى القرآن الكريم

القصة فى القرآن الكريم خضعت للغرض الدينى، وفى هذا الغرض ترد القصة الواحدة فى معظم الحالات مكررة فى مواضع شتى، وقد كانت ظاهرة تكرار القصص القرآنى فى تلك الصور الواضحة مما لفت أنظار العلماء إليها، وحرك عقولهم للكشف عن حكمها ودواعيها. وقد اقتضت حكمة الله ـ جل شأنه ـ أن تذكر القصة فى القرآن مفرقة الأجزاء فى مواضع لتكون كل عبرة بجوار خبرها فى القصة.

ومصدر القصة فى القرآن الكريم هو الله تعالى الذى يعلم السر وأخفى، ومعنى ذلك أن الصدق المطلق سمة للقصص القرآنى، والقصة الواحدة فى القرآن تختلف صورة عرضها بين الطول والقصر، والإجمال والتفصيل، يقول العلامة الزركشى[1]: ومن التكرار ـ تكرار القصص فى القرآن: كقصة إبليس فى السجود لآدم، وقصة موسى وغيره من الأنبياء ـ قال بعض العلماء: ذكر الله موسى فى مائة وعشرين موضعاً فى كتابه. ثم يكشف الزركشى عن وجوه لبعض أسرار هذا التكرار فيقول: وإنما كررها ـ أى: القصة ـ لفائدة خلت عنها فى الموضع الآخر، وهى أمور:

١ـ **إحداها**: أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئا، ألا ترى أنه ذكر الحية فى عصا موسى ـ عليه السلام ـ وذكرفى موضع آخر ثعباناً، ففائدته أن ليس كل

(١) البرهان فى علوم القرآن ج ٣ ص ٢٥ ـ ٢٨، بتصرف.

حية ثعباناً، وهذه عادة البلغاء أن يكرر أحدهم فى آخر خطبته أو قصيدته كلمة لصفة زائدة.

٢ـ **الثانية**: أنَّ الرجل يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله ثم يهاجر بعد.

وآخرون يحكون عنه مانزل بعد صدور الأولين وكان أكثر من آمن به مهاجريـاً، فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى آخرين، وكذلك سائر القصص. فأراد الله تعالى اشتراك الجميع فيها، فيكون فيه إفادة القوم وزيادة تأكيد وتبصرة للآخرين وهم الحاضرون.

٣ـ **الثالثة**: تسلية لقلب النبى ﷺ بما حدث للأنبياء مثله مع أممهم، قال تعالـى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾[1]

٤ـ **الرابعة**: إن إبراز الكلام الواحد فى فنون كثيرة، وأساليب مختلفة لا يخفى مافيه من الفصاحة.

٥ ـ **الخامسة**: أن الدواعى لاتتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام، فلهذا كررت القصص دون الأحكام.

٦ـ **السادسة**: أن الله تعالى أنزل هذا القرآن، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد ـ ﷺ ـ ثم بين وأوضح الأمر فى عجزهم بأن كرر ذكر القصة فى مواضع إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأى نظم جاءوا، وبأى عبارة عبروا.... إلخ[2].

وأسس الدعوة من خلال قصص القرآن الكريم تتناول الموضوعات التالية:

---

(١) سورة هود عليه السلام، الآية: ١٢٠.

(٢) البرهان فى علوم القرآن ج٣ ص ٢٥ ـ ٢٨ بتصرف.

١ـ الإيمان بالله، وتوحيده، وإفراده بالعبادة.

٢ـ الإيمان بالرسل.

٣ـ الإيمان بالبعث والجزاء.

وسوف أتناول كل موضوع من هذه الموضوعات بشيء من الإيجاز والاختصار.

الإيمان بالله وتوحيده وإفراده بالعبادة

إن الإيمان بالله تعالى هو الأساس الذى يقوم عليه ماسواه من أمر هذا الدين، فما من رسول من رسل الله الكرام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إلا ودعا قومه إليه، فلقد توجه الرسل إلى أقوامهم بنبذ ماكانوا عليه من عبادة غير الله تعالى. وإخلاص العبادة لله وحده، والإيمان برسالتهم.

وكان موكب الإيمان الذى قاده الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يواجه الجاهلية الضالة، بكلمة الحق فى صرامة وصراحة، وبأسلوب يعرضه القرآن فى صورة واحدة.(١)

قال جل ذكره:

﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (٢)

جاء هذا على لسان نوح ـ عليه السلام ـ وتكررت هذه الدعوة على لسان هود ـ عليه السلام ـ :

---

(١) معالم الدعوة فى قصص القرآن الكريم ج١ ص ٦٢ بتصرف.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[1]

وجاءت هذه الدعوة على لسان صالح ـ عليه السلام ـ

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ ﴾[2]

كما تكررت الدعوة إلى توحيد الله على ألسنة كل الرسل عليهم الصلاة والسلام[3].

يقول الله سبحانه فى شأن دعوة الرسل جميعاً أممهم إلى عبادة الله سبحانه وحده وتحذيرهم من الإشراك بالله ـ جل شأنه

ـــ قال تعالى:

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾[4]

وقال جل شأنه:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[5]

---

(١) سورة الأعراف، الآية. ٦٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧٣.

(٣) انظر مثلا الآية ٨٥ من سورة الأعراف.

(٤) سورة النحل، الآية: ٢.

(٥) سورة النحل، الآية: ٣٦.

وقال جل شأنه:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[1]

يتضح من الآيات المهمةُ ـ المهمة التى بعث لأجلها الرسل، وأنها قاصرة على دعوة الناس إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، وترك عبادة ماسواه.

وقد جاء فى القصص القرآنى ذكر عدد من رسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأنهم قاموا بدعوة أممهم إلى عبادة الله وحده، ومن ذلك ماجاء عن دعوة نبى الله نوح ـ عليه السلام ـ قومه إلى ذلك، وقبل الحديث عن دعوته يحسن بنا أن نذكر شيئا عن اسمه ونسبه[2] فنقول: اختلف العلماء فى نسبه أنه نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ. وهو إدريس فيما يزعمون بن مهليل بن قنعان بن شيث بن آدم عليه السلام.

وقد ذكروا أن اسمه عبد الغفار، أو السكن، أو عبد الملك، أو عبد الجبار، أو عبد الأعلى. وإنما سمى نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه؛ لأنه بكى على قومه خمسمائة سنة، أو لأن أمه لما تركته صغيرا فى المغارة خوفاً عليه من أحد الجبارين دعته وهى تقول:

وانوحاه، وقيل غير ذلك مما لا يليق أن ينسب إلى أنبياء الله الكرام عليهم السلام[3].

ويقول الألوسى: «إنه إنما سمى نوحاً لكثرة ماناح على نفسه. واختلف فى سبب

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

(٢) ابن كثير ج ٣ ص ٤٢٧، ط/ الشعب، وفتح البارى ج ١٣ ص ١٠٨، شركة الطباعة الفنية، وانظر: التاريخ الكبير للبخارى ج ١ ص ٦.

(٣) الروض الأنف للسهيلى ج ١ ص ٤٠ والأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ج ١ ص ١٩ والخازن ٢/ ٢٤٥.

ذلك فقيل: هو دعوته على قومه بالهلاك، وقيل لمراجعة ربه فى شأن كنعان، وقيل: إنه مر بكلب مجذوم فقال له: اخسأ ياقبيح، فأوحى الله إليه: أعبتنى أم عبت الكلب؟![1].

وخلاصة القول: أن ماذكروه فى هذا المقام هو نوع من الكلام الذى لايستند إلى دليل، وربما يكون بعضه من الإسرائيليات التى دست فى تاريخ هذا النبى الكريم؛ لأن العقل يستبعد مثل هذا الكلام؛ وذلك للآتى:

١ـ ورد اسم نوح فى القرآن والسنة، ولم يطلق عليه غير هذا الاسم، جاء ذلك فى عدد من آيات القرآن الكريم، منها قوله ـ جل شأنه ـ:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾[2]

وقوله تعالى:

﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ ﴾[3]

وقول قومه له

﴿ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾[4]

وفى السنة المطهرة: ماجاء فى حديث الشفاعة المشهور: «اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يانوح أنت أول الرسل..... الخ»[5].

ولو كان له اسم آخر لورد فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) روح المعانى للألوسى ج ٨ ص ١٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

(٣) سورة هود عليه السلام، الآية: ٤٨.

(٤) سورة هود عليه السلام، الآية: ٣٢.

(٥) صحيح البخارى ج ٤ ص ١٦٤، ط الشعب (كتاب بدء الخلق): إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه.

٢ـ ماعللوا به هذه التسمية من أنه بكى على قومه أو على ذنبه. فمعنى ذلك أنه لم يطلق عليه اسم نوح إلا بعد أن كبر وبلغ الرسالة ورفضوها فبكى عليهم أسفاً، وهذا تعليل باطل.

٣ـ قال القاسمى: «إنما يصح ماذكر لو كان نوح لقباً موجودا له اسم غيره. أما وهو اسمه الوضعى، واللفظ غير عربى.... إلخ»[١].

٤ـ وقال ابن منظور: ونوح اسم نبى معروف ينصرف مع العجمة والتعريف، وكذلك كل اسم على ثلاثة أحرف أوسطه ساكن، مثل: لوط؛ لأنَّ خفته عادلت أحد الثقلين. ١ هـ[٢].

والمعوَّل عليه فى هذا المقام هو الظاهر من أنه: اسم وضع له حين ولد، وليس مشتقاً من النياحة، وأنه اسم أعجمى صرف لخفته كما قال ذلك العلامة ابن منظور.

ولقد كان نوح ـ عليه السلام ـ من أحسن النَّـاس نسباً، ومن أكرمهم خلقاً، وأثبتهم قلباً، وأقدرهم على تحمل المشاق، والصبر على محارم الله، فهو من أولى العزم من الرسل. يقول الدكتور عبد الحليم محمود فى هذا الصددما معناه: إن النصوص الصحيحة تخبرنا بأنَّ نوحاً كان رجلا ناضجا مكتملاً، أرسله الله لهداية قومه، أما طفولته وشبابه وكل ما كان قبل الرسالة فليس لنا به علم، ولكن الله سبحانه يختارهم من ناحية النسب من أشرف الأسر[٣]ولقد سأل هرقل أبا سفيان عن رسول اللـه ـ ﷺ ـ قائلاً: كيف نسبه فيكم؟ فرد أبو سفيان قائلاً: هوفينا ذو حسب. فقال هرقل: وكذلك الرسل تبعث فى أحساب قومهم[٤].

---

(١) تفسير القاسمى ج ٧ ص ٢٧٦.

(٢) لسان العرب لابن منظور ج ٣ ص ٤٦٨.

(٣) فى رحاب الكون، للدكتور / عبد الحليم محمود ص ٧١.

(٤) صحيح البخارى ج١ ص ٨ طبعة الشعب،باب بدء الوحى.

أما من ناحية الإعداد التربوى فإن الله سبحانه يصطفيهم لنفسه، قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾[1]

ويقول جل شأنه عن نبيه موسى ـ عليه السلام ـ :

﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾[2]

وعن نبيه يحيى عليه السلام ـ :

﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾[3]

ويقول عن رسولنا الكريم ﷺ :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[4]

من هذا وغيره نؤكد أن نوحاً ـ عليه السلام ـ لم يكن بدعاً من الرسل،وأنه كان على خلق كريم. يقول العلامة ابن خلدون عن الرسل والأنبياء عامة: ومن علاماتهم أن يوجد لهم قبل الوحى خلق الخير والذكاء، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع، وهذا هو معنى العصمة، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات. والمنافرة لها، وكأنها منافية لفطرته[5].

وقد ورد فى القرآن أن الله تعالى اصطفى آدم ونوحاً فقال ـ جل شأنه ـ:

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٥.

(٢) سورة طه، الآية: ٤١.

(٣) سورة مريم، الآيتان:١٣ ، ١٤.

(٤) سورة القلم، الآية: ٤.

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٨٥ فما بعدها.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1]

كما وصف الله تعالى نوحاً بالعبودية والشكر له ـــ عز وجل ـ فقال تعالى:

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾[2]

قال ابن كثير فى بيان الآية الكريمة: «ورد أن نوحا عليه السلام كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله؛ فلهذا سمى عبداً شكوراً»[3] ولقد أثنى الله تعالى على نوح بسبب صبره وشكره فى آيات أخرى من كتابه الكريم، فقال ـ جل ذكره ـ:

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾[4]

ولا أريد أن أخوض فى اختلاف العلماء فى سن نوح حينما بعثه الله، ولا الديانة التى كان عليها قومه؛ لأن لهذا مجالا آخر.

* * *

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٧.

(٤) سورة الصافات، الآيات: ٧٥ ـ ٨٢.

الفصل السابع

دعوة نوح إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة

قال جل شأنه:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾[1]

قال العلامة ابن عاشور فى بيان الآية الكريمة: «استئناف انتقل بع الغرض من إقامة الحجة والمنة المبتدئة بقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[2].

وتنبيه أهل الضلال أنهم غارقون فى كيد الشيطان، الذى هو عدو نوعهم، من قوله:

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾

ـ إلى قوله:

﴿ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠.

(٣) سورة الأعراف من الآية: ١٦ـ إلى الآية ٣٣.

ثم بالتهديد بوصف عذاب الآخرة وأحوال النّـاس فيه، وما تخلل ذلك من الأمثال والتعريض[1] إلى غرض الاعتبار والموعظة بما حل بالأمم الماضية.

فهذا الاستئناف له مزيد اتصال بقوله فى أوائل السورة:

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا ﴾[2]

وقد أفيض القول فيه فى معظم السورة، وتَـتَـبَـعُ هذا الاعتبار أغراض أخرى: وهى تسلية الرسول ـ ﷺ ـ وتعليم أمته بتاريخ الأمم التى قبلها من الأمم المرسل إليهم؛ ليعلم المكذبون من العرب أن لاغضاضة على محمد ـ ﷺ ـ ولا على رسالته من تكذيبهم ولا يجعله ذلك دون غيره من الرسل، بله أن يؤيد زعمهم أنه لو كان صادقاً فى رسالته لأيده الله بعقاب مكذبيه لما قالوا على سبيل التهكم أو الحجاج ـ :

﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[3]

وليعلم أهل الكتاب وغيرهم أن مالقيه محمد ـ ﷺ ـ من قومه هو شأن أهل الشقاوة تلقاء دعوة رسل الله. وأكد هذا الخبر بلام القسم وحرف التحقيق؛ لأن الغرض من هذه الأخبار تنظير أحوال الأمم المكذبة رسلها بحال مشركى العرب فى تكذيبهم رسالة محمد ـ ﷺ ـ.

وخاطب نوح قومه كلهم لأن الدعوة لاتكون إلا عامة لهم، وعبر فى ندائهم

---

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ج ٨ ص ١٨٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

بوصف القوم لتذكيرهم بآصرة القرابة؛ ليتحققوا أنه ناصح ومريد خيرهم ومشفق عليهم، وأضاف القوم إلى ضميره للتحبيب والترقيق لاستجلاب اهتدائهم. وقوله لهم:

﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾

إبطال للحالة التى كانوا عليها، وهى تحتمل أن تكون حالة شرك كحالة العرب، وتحتمل أن تكون حالة وثنية باقتصارهم على عبادة الأصنام دون الله تعالى، كحالة الصابئة وقدماء اليونان، وآيات القرآن صالحة للحالين، والمنقول فى القصص: أن قوم نوح كانوا مشركين، وهو الذى يقتضيه مافى صحيح البخارى عن ابن عباس أن آلهة قومه أسماء جماعة من صالحيهم، فلما ماتوا قال قومهم: لو اتخذنا فى مجالسهم أنصاباً، فاتخذوها وسموها بأسمائهم، حتى إذا هلك وتَنَسَّخ العلم عُبدتْ.

وظاهر مافى سورة نوح أنهم كانوا لايعبدون الله تعالى؛ لقوله:

﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ (١)

وظاهر مافى سورة فصلت أنهم يعترفون بالله لقولهم:

﴿ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ (٢)

مع احتمال أنه خرج مخرج التسليم الجدلى، فإن كانوا مشركين كان أمره إياهم بعبادة الله مقيدا. بمدلول قوله:

﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾

---

(١) سورة نوح، الآية: ٣.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٤.

أى: أفردوه بالعبادة ولاتشركوا معه الأصنام، وإن كانوا مقتصرين على عبادة الأوثان كان قوله:

﴿ مَالَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾

تعليلا للإقبال على عبادة الله؛ أى: هو الإله لا أوثانكم[1].

يقول صاحب المنار[2] فى بيان قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾[3]:

بدأ الله تعالى هذه القصة بالقسم لتأكيد خبرها لأول من وجه إليهم الخطاب بها وهم أهل مكة ومن وراءهم من العرب، إذ كانوا ينكرون الرسالة والوحى على كونهم أميين ليس عندهم من علوم الأمم وقصص الرسل شيء، إلا أن يكون كلمة فى بيت شعر مأثور، أو كلمة ناقصة من بعض أهل الكتاب حيث كانوا يلقونهم من بلاد العرب أو الشام، أو ممن تهود أو تنصر، وكلهم ـ أو جُلُّهم ـ ظلوا على أميتهم.

وقوله:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾

جواب قسم محذوف، أى: والله لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، والدليل على هذا القسم وجود لامه فى بدء الجملة[4].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٨/ ١٨٨.

(٢) تفسير المنار ج ٨ ص ٤٨٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

(٤) تفسير النسفى ج ٢ ص ١٧ ط محمد على صبيح، والمنار جـ ٨ ص ٤٩٠ ط حجازى/ الرابعة.

وأتى بالقسم هنا: للرد على المنكرين وهو مايجب التأكيد به. فقد أقسم الله تعالى بأنه أرسل نوحاً ـ عليه السلام ـ إلى قومه، وإرساله إياه: هو تكليفه القيام بالرسالة، وهى منزلة جليلة شريفة يستحق بها الرسول أن يعظم أعلى تعظيم البشر؛ لأنه أرسل من عند الله مالك السموات والأرض.

وقوم الرجل: هم أقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد، وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازاً للمجاورة، [1] وفى التنزيل:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [2] .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم نوحاً ـ عليه السلام ـ ليدلهم على طريق الرشاد، ويعرفهم بمعبودهم الحق الذى يأخذ بأيديهم إلى جنات النعيم. فقال:

﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾

هذه حكاية عما وجهه نوح ـ عليه السلام ـ لقومه من إرشادات وعظات. وهذا القول فيه تلطف وأدب، تلك الكلمة سيوجهها كل رسول إلى قومه: عبادة الله وحده لا شريك له.

قال صاحب صفوة البيان: [3] «هذه دعوة جميع الرسل إلى أقوامهم، فتوحيد العبادة شرعتهم كافة ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وهو الدين القيم، والملة الحنيفية والإسلام» أ هـ.

وقوله تعالى ﴿ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ يفيد تأكيد النفى وعمومه، فليس لهم إله ما يستحق

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج٢ ص ٥٢٠.

(٢) سورة يس، آية: ٢٠.

(٣) صفوة البيان لمعانى القرآن ج ١ ص ٢٦٥.

أن يوجه إليه نوع مامن العبادة.

ثم قص علينا القرآن الكريم أنّ نوحاً ـ عليه السلام ـ قد حذر قومه وأنذرهم من سوء عاقبة تكذيبهم، وأظهر لهم خوفه عليهم وشفقته بهم؛ فهو رسولهم ومرشدهم، فقال:

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾

والمعنى: إنى أخاف عليكم إذا ماكذبتم واخترتم طريق الكفر والضلال، وتركتم عبادة الله وحده عذاب يوم عظيم.

واليوم العظيم: «إما يوم القيامة، أو يوم نزول العذاب عليهم: وهو الطوفان»[1].

ووصف اليوم بالعظم؛ لبيان عظم مايقع فيه.

قوله تعال:

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾

«ولقد قال نوح لقومه هذه القولة الواحدة، وأنذرهم عاقبة التكذيب بها فى إشفاق الأخ الناصح لإخوانه، وفى صدق الرائد الناصح لأهله، وهنا يخاف نوح على قومه ما ينتظرهم من عذاب فى يوم عظيم. وهكذا تتبين مقارنة منهج الله وتقريره فى شأن العقيدة، ومناهج الخابطين فى الظلام من علماء الأديان وأتباعهم الغافلين عن منهج القرآن[2].

ونلاحظ فى بيان دعوة نوح لقومه إلى عبادة الله، الأسلوب المهذب الذى تسلح به رسول الله نوح ـ عليه السلام ـ فى دعوته؛ حتى تثمر الموعظة، وكان الأولى

---

(١) تفسير النسفى ج ٢ ص ١٧ والقاسمى ج ٧ ص ٢٧٦٢.

(٢) فى ظلال القرآن، سيد قطب: مجلد ٣ ج ٨ ص ١٢١١.

بهم أن يستجيبوا لما يحييهم وما ينفعهم فى الدنيا والآخرة، لكنهم ردوا عليها رداً متعنتا يدل على انحطاط خلقهم، وانطماس بصيرتهم، حكى القرآن ردهم فى قوله:

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (١).

والملأ ـ مهموز ـ: أشراف القوم ، سموا بذلك لملاءتهم بما يلتمس عندهم من المعروف وجودة الرأى: أو لأنهم يملأون العيون أبهة(٢).

والملأ: اسم جمع لا واحد له، مثل رهط. والجملة الكريمة مستأنفة، كأنه قيل: فماذا قالوا؟ فقيل: قال الملأ. والرؤية هنا قلبية، ومفعولاها هما: الضمير والظرف.

وقيل: بصرية فيكون الظرف فى موضع الحال(٣).

والمعنى للآية الكريمة: قال الأشراف من قوم نوح له عندما دعاهم إلى وحدانية الله تعالى:

إنا لنراك فى غمرة من الضلال أحاطت بك إذ كيف تنهانا عن عبادة آلهتنا؟!

إن هذا لضلال مبين وانحراف عن طريق الرشاد، فهو فى زعمهم أنه عدل عن طريق الحق وذهب عنه عند دعوة الإله الواحد الفرد الصمد.

يقول الإمام أبو حيان: «وجعلوا الضلال ظرفاً له، مبالغة فى وصفهم له بذلك، وزادوا فى المبالغة بأن أكدوا ذلك بالجملة المصدرة بإن ولام التوكيد»(٤).

ويقول الحافظ ابن كثير فى بيان معنى الآية الكريمة:

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

---

(١) سورة الأعرف، آية: ٦٠.

(٢) المصباح المنير : أحمد بن محمد بن على الفيومى ص٢٢٢ ، مكتبة لبنان عام ١٩٨٧م.

(٣) انظر: روح المعانى للإمام الألوسى ج٨ ص١٥٠ ، طبعة المنيرية.

(٤) راجع البحر المحيط لأبى حيان ج٤ ص ٣٢٠ طبعة النصر الحديثة بالرياض.

وهكذا حال الفجار، إنما يرون الأبرار فى ضلالة، كقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾[1]

وقوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[2]

إلى غير ذلك من الآيات.[3]

فالأشراف والسادة من القوم هم الذين يتعاصَوْنَ على الرسل لانغماس عقولهم بطلب الرياسة وحب الدنيا وزخارفها. يقول بعض أهل العلم مصوراً موقف نوح ـ عليه السلام ـ عندما بدأ يواجههم بالدعوة: «ولما رأوا ماحل بالأصنام وثبوا إليه وقالوا: إنّا لنراك فى ضلال مبين، أما رضيت بالمشاركة حتى تدعى أنك رسول الله إلينا؟! ونحن أعلم أنك فى الطريقة المحمودة، فقد كنت صغيراً وقد اعتراك جنون.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾

فسبوه وهموا به فمن دونه المؤمنون، وأخذت الحمية أقاربه فى النسب فخاف الرؤساء أن تقع فتنة فتركوه، فأوحى الله إليه أن اصبر عليهم، فرجع نوح إلى موضعه وبقى قومه الذين أرشدوا يقولون: مانعرف نوحاً منذ نشأ إلا صادقاً وإنا نظن أن الذى جاء به حق، فسحبهم بنو قابيل على وجوههم إلى ملكهم. فقال: إن نوحاً من

---

(١) سورة المطففين، آية: ٣٢.

(٢) سورة الأحقاف، آية: ١١.

(٣) راجع ابن كثير ج٣ ص ٤٢٨ طبعة الشعب.

أشرف قومه حسباً، وأكرمهم أمّـا وأباً، وقومه وإن دخلوا فى دينكم لايرضون بأذيته، وأخاف أن تتفرق كلمتكم، ويقع بأسكم بينكم، ونوح لاخوف عليكم منه فاصبروا عليه وداروا أهله، فأجابوه:

«السمع والطاعة»[1].

فقوم نوح هم الضالون الذين عميت قلوبهم، وانطمست بصائرهم، وهم ظالمون له بإجابتهم هذه، ولم يكن على ضلال أبداً. ولذلك يقول النيسابورى فى بيان قول الحق تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[2].

«وكان نوح أميناً فيهم كمحمد ـ ﷺ ـ فى قريش».[3]

ويرد نوح ـ عليه السلام ـ على قومه بأسلوب مهذب، فينفى عن نفسه الضلالة، ويوضح لهم حقيقة دعوته فيقول ـ كما أخبرنا القرآن عنه ـ:

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ ... ﴾[4].

والمعنى: قال نوح لقومه: ياقوم ليس بى أدنى شىء من الضلالة، وليس بى خروج عن الحق والرشاد إذ أمرتكم بتوحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له.

وهنا نلحظ أن نوحاً ـ عليه السلام ـ ينفى الضلال عن نفسه على أبلغ وجه؛ لأن التاء فى الضلالة للمرة الواحدة. يقول الإمام النسفى: «ولم يقل ضلال» كما قالوا؛ لأن الضلالة أخص من الضلال»[5].

---

(١) انظر: سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى ج١ ص ٩٩.

(٢) سورة الشعراء، آية: ١٠٥.

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى، مطبوع بهامش الطبرى ج١٩ ص ٦٧٧.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٦١.

(٥) انظر تفسير النسفى ج٢ ص١٧، طبعة محمد على صبيح.

وفى تقديم الظرف «بى» فى قوله:

﴿ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ ﴾

تعريض بأنهم فى ضلال واضح، ثم استدرك لتأكيد نفى الضلالة فقال

﴿ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

فبعد أن نفى نوح ـ عليه السلام ـ عن نفسه أى لون من ألوان الضلالة وصف نفسه بأربع صفات كريمة:

أولها: قوله :

﴿ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يعنى أرسلت من رب العالمين إليكم لهدايتكم وإنقاذكم، مما أنتم فيه من شرك وكفر، فكان فى الغاية القصوى من الهدى[1].

يقول الإمام الجمل: «وقد جاءت (لكن) هنا أحسن مجيء، لأنها بين نقيضين؛ لأن الإنسان لايخلو من أحد شيئين: ضلالة وهدى، والرسالة لاتجامع الضلالة، و (من رب العالمين) صفة لرسول، و (من) لابتداء الغاية »[2].

والرسالة يلزمها الهدى التام الغير القابل للضلال، فاستدرك الملزوم ليكون كالبرهان على استدراك اللازم، كأنه قال: ولكنى على هدى فى الغاية لأنى رسول من رب العالمين.[3]

---

(١) انظر قصص الأنبياء مع أقوامهم والعبر المستفادة منه فى سورة الأعراف ص ٥٣ للأخ الزميل الدكتور/ البدرى عاطف على محمد أبو حربة.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ١٥٤ طبعة عيسى الحلبى.

(٣) راجع: تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقى ج ٣ ص ١٨٣، الطبعة العثمانية سنة ١٣٣١ هـ.

وثانيها ـ قوله :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى ﴾

أى: ما أوحى إلى فى الأوقات المتطاولة، أو فى المعانى المختلفة من الأوامر والنواهى والزواجر والبشائر... .

يقول الإمام الألوسى: «وجمع الرسالات مع أنّ رسالة كل نبى واحدة، رعاية لاختلاف أوقاتها أو تنوع معانى ما أرسل ـ عليه السلام ـ به من العبادات والمعاملات، أو أنه أراد رسالته ورسالة غيره ممن قبله من الأنبياء كإدريس عليه السلام»[1].

وثالثها ـ قوله :

﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾

أى: وأقصد صلاحكم بإخلاص.

والنصح: تحرى فعل أوقول فيه صلاح صاحبه. يقول الإمام القرطبى: «النصح: إخلاص النية من شوائب الفساد، يقال: نصحته، ونصحت له، نصيحة ونصاحة. أى: أرشدته إلى مافيه صلاحه، ويقال: رجل ناصح الجيب، أى: نقى القلب.

والناصح: الخالص من العسل وغيره، مثل الناصع، وكل شىء خلص فقد نصح»[2].

والفرق بين تبليغ الرسالة والنصح، هو أن تبليغ الرسالة معناه: أن يعرفهم جميع

---

(١) انظر: تفسير روح المعانى للألوسى ج٨ ص ١٥٢ طبعة المنيرية، دون تاريخ.

(٢) تفسير القرطبى ج ٧ ص ٢٣٤ بتصرف، طبعة دار الكتاب العربى.

أوامر الله ونواهيه، وجميع أنواع التكاليف التى كلفهم الله بها، وأما النصح فمعناه أن يرغبهم فى قبول تلك الأوامر والنواهى والعبادات، ويحذرهم من عذاب الله إن عصوه.[1]

ومثل هذه الآية الكريمة قول الحق تعالى عن هود ـ عليه السلام ـ:

﴿ وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾[2]

وقد روى مسلم وغيره: عن أبى رقية تميم بن أوس الدارى ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «الدين النصيحة»[3] قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[4].

أما الصفة الرابعة: فهى قوله:

﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

والمعنى: وأعلم من الأمور الغيبية التى لا تعلم إلا عن طريق الوحى أشياء لا علم لكم بها؛ لأنَّ الله قد خصنى بها.

يقول صاحب البحر المحيط: وفى قوله: «مالا تعلمون» إبهام عليهم، وهو عام، ولكن ساق ذلك مساق المعلومات التى خاف عليهم، ولم يسمعوا قط بأمة عذبت فتضمن التهديد والوعيد، فيحتمل أن يريد: مالا تعلمون من صفات الله وقدرته

---

(١) انظر: تفسير الخازن ج ٢ ص ٢٤٦ طبعة مصطفى الحلبى الثانية سنة ١٩٥٥م وحاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ١٥٤.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٦٨.

(٣) أى: عماد الدين وقوامه النصيحة. وهى كلمة جامعة، معناها: حيازة الخير للمنصوح له.

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه برقم ٥٥ وأبو داود فى سننه برقم (٤٩٤٤) والنسائى ج ٧ ص ١٥٦.

وبطشه على من اتخذ إلها معه. أو يريد: مالا تعلمون مما أوحى إلى، قال ابن عطية: «ولابد أن نوحاً ـ عليه السلام ـ وكل نبى مبعوث إلى الخلق كانت له معجزة بخرق العادة، فمنهم من عرفنا بمعجزته ومنهم من لم نعرف، وما أحسن سياق هذه الأفعال، قال أولاً: «أبلغكم رسالات ربى» وهذا مبدأ أمره معهم ، وهو التبليغ، كما قال:

﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾

ثم قال: «وأنصح لكم» أى: أخلص لكم فى تبيين الرشد والسلامة فى العاقبة إذا عبدتم الله وحده، ثم قال: «وأعلم من الله مالا تعلمون» أى: من بطشه بكم، وهو قال أمركم إذ لم تفردوه بالعبادة فنبه على مبدأ أمره ومنتهاه معهم»[1].

قال الحافظ ابن كثير: «وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدركه أحد من خلق فى هذه الصفات، كما جاء فى صحيح مسلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ماكانوا وأكثر جمعاً: أيها الناس وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد ـ ثلاث مرات»[2].

وجملة «وأعلم من الله مالا تعلمون» مقررة للرسالة ومبينة لمزيد علمه، وأنه يختص بعلم الأشياء التى لايعلمونها بإخبار الله بذلك، ومنها قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه، وأن بأسه لايرد عن القوم المجرمين»[3].

---

(١) راجع: البحر المحيط لأبى حيان ج ٣ ص ٣٢١، ٣٢٢ طبعة النصر الحديثة بالرياض.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ٨ ص ١٨٤ طبعة المصرية، باب حجة الوداع.

(٣) انظر: فتح البيان فى مقاصد القرآن ج ٣ ص ٣٥٣، ٣٥٤ ط العاصمة بالقاهرة للعلامة صديق حسن خان.

ولقد حكى القرآن الكريم عن قوم نوح أنهم عجبوا من أن يختار الله رسولا منهم فقال عز من قائل:

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]

يقول الشيخ المراغى فى بيان هذا المعنى: «هذا بيان لشبهتهم على الرسالة، وهى أن الرسول بشر مثلهم، وكأنهم يرون أن الاشتراك فى البشرية والصفات العامة يقتضى التساوى فى جميع الخصائص والمزايا، ويمنع الانفراد بشىء منها، والمشاهدة أكبر برهان على بطلان هذه القضية، فالتفاوت فى الغرائز والاختلاف فى القوى العقلية والمعارف والأعمال الكسبية جد عظيم فى البشر، وليس فى الأنواع الأخرى ما يشبه الإنسان فى ذلك، ولو فرض التساوى بينهم، فهل هذا يمنع أن يختص بعض عباده بما هو فوق المعهود فى الغرائز والمكتسب بالتعليم؟! كلا إنه تعالى قدير على ذلك، وقد قضت به مشيئته ونفذت به قدرته»[2].

والعجب من هؤلاء القوم: أنهم رضوا بالألوهية للحجر ولم يرضوا بالنبوة للبشر. وإذا كان قوم نوح قد تعجبوا من إرسال نوح ـ عليه السلام ـ إليهم فإن تعجبهم هذا ناتج من عمى قلوبهم وبلادة تفكيرهم؛ لأنه ليس فى إرساله إليهم ليرشدهم إلى مافيه صلاحهم موضع تعجب، وإنما العجب من إهمال أمرهم.

وخلاصة القول: فهذا موقف نوح العادل من قومه، وذلك هو منهاجه الواضح السليم فى دعوتهم إلى الله تعالى وترك عبادة الأصنام، وتلك هى بعض مظاهر سماحته معهم ومودته إياهم. ولقد كان الواجب على قومه أن يقابلوا الإحسان بالإحسان، وأن يتبعوا نوحاً ـ عليه السلام ـ فيما يدعوهم إليه، ولكن قومه لم يكونوا عند حسن الظن بهم، فلقد عموا وصموا وكذبوا نوحاً ـ عليه السلام.

* * *

(١) سورة المؤمنون، آية: ٢٤.

(٢) انظر تفسير الشيخ مصطفى المراغى عند تفسير هذه الآية.

الفصل الثامن

أسس الدعوة إلى الله تعالى فى قصة نوح عليه السلام

١ـ إن نبى الله نوحاً ـ عليه السلام ـ هو أبو البشر الثانى، وأول أولى العزم من الرسل، وأرسله الله تعالى إلى قومه فمكث فى قومه ـ كما أخبر القرآن ـ ألف سنة إلا خمسين عاماً:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[1]

وقد ظل نبى الله نوح ـ عليه السلام ـ صابراً على أذاهم، صامداً لاستهزائهم، يرصد فيهم بريق الأمل، ولكنهم ماازدادوا على الأيام إلا عتـواً واستكباراً.

٢ـ لقد كان قوم نوح يعبدون أصناماً متعددة، وينقسمون إلى طبقات عديدة، ويملكون أموالا ومزارع، وصناعات، وكانوا يتصفون بصفات الكبر وعدم الخوف من الله تعالى[2].

ومن هنا دعاهم نوح إلى توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له، بالخوف منه سبحانه فقال لهم:

﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾[3]

(١) سورة العنكبوت، آية: ١٤.

(٢) انظر: الدعوة الإسلامية: أصولها ووسائلها ص ١٢٩ د. أحمد أحمد غلوش، مرجع سابق.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٥٩.

وقال تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1]

وقال جل شأنه:

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾[2].

﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾[3].

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾[4].

ورغم وضوح هذه الأدلة، وصدق دعوة نوح ـ عليه السلام ـ إلا أن قوم نوح عارضوه وقالوا له ما حكاه الله عنهم:

﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾

وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى.

﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾[5].

وقالوا لأقوامهم:

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٠٥ ـ ١٠٨.

(٢) سورة نوح الآية: ١٣ ـ ١٦.

(٣) سورة نوح، الآيتان: ١٧ ، ١٨.

(٤) سورة نوح، الآيتان: ١٩ ، ٢٠.

(٥) سورة هود، آية: ٢٧.

﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾[1].

إنهم كانوا يريدون رسولا من الملائكة، ويريدون طرد الضعفاء من حول نوح، ويريدون الاستمرار على جرمهم واستكبارهم، فقال لهم نوح ـ عليه السلام ـ ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾[2]

وبعد أن أنكر الملأ رسالة نوح ـ عليه السلام ـ من أجل بشريته ـ وهى الشبه التى تردد على ألسن الكفار نحو الرسل جميعاً ـ جعلوا استجابة الفقراء والمستضعفين دليلاً على عدم صحة ما يدعيه من الرسالة.

ونظرتهم إلى الفقراء: نظرة احتقار، كما يدل على ذلك تسميتهم بالأراذل، وهى نظرة الكبراء والمترفين دائماً إلى الذين لم يؤتوا المال والسلطان، فليس هناك من موازين يزنون بها فى هذه الحياة، إلا هذه الموازين والمقاييس المادية الهابطة. وتهمة أخرى يتوجهون بها إلى الفقراء: وهى أنهم تقبلوا دعوة الرسل، وحملوا «العقيدة» التى جاءوا بها دون روية ولا نظر، وإن ماجاء به نوح ـ عليه السلام ـ لوكان هدى وصواباً ما سبق إليه الفقراء

﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾[3].

وفى سورة الشعراء، يقول الله تعالى حكاية عن هؤلاء الأكابر أيضا: ـ

﴿ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة نوح، آية: ٢٣.

(٢) سورة هود الآية: ٢٩.

(٣) سورة هود، آية: ٢٧.

(٤) سورة الشعراء، آية: ١١١.

أى: لا ينبغى أن نتبعك ـ وقد تبعك سفلة القوم وفقراؤهم ولا يصح لنا ـ مع ما نحن فيه من القوة والغنى ـ أن نكون قرناء لأولئك الأرذلين، فيجمعنا معهم دين واحد وملة واحدة[1].

ويواجه الملأ من قوم هود ـ عليه السلام ـ نبى الله هوداً بأسلوب مماثل من سلفهم من قوم نوح، قال الله عنهم:

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[2]

لم يكتف الملأ من قوم هود ـ عليه السلام ـ بنسبته إلى السفاهة، بل جاءوا بفى: «فى سفاهة» التى تدل على التمكن فى الأمر، وعدم الانفكاك منه.

كبر عليهم أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده رجل من قومهم، وأن يستنكر منهم عدم التقوى، وقد رأوا مصير قوم نوح من قبلهم، لذلك عدوا ذلك سفاهة وحمقاً، دون أن يتأملوا فى دلائل صدقه، بل تسرعوا بالحكم عليه بالسفاهة دون دليل، ولكنه عامل التكبر عن قبول الحق، والاستعلاء عن الخضوع والاتباع لدين الله سبحانه.

٣ـ الملأ والسادة والوجهاء دائماً يعارضون الدعوة ويكفرون بالرسالة؛ ولذا يكون من الغريب ـ فى اعتبارهم ـ أن يصير إلى ريادة فيهم من لم يكن من أسيادهم وكبرائهم، وما حكاه القرآن الكريم عن كفار مكة عندما دعاهم سيدنا محمد ـ ﷺ ـ إلى الإسلام، إلا نوع من هذا الضرب: وهو الكبر والغرور وعدم قبول الدعوة من أحد إلا إذا كان من سادتهم وكبرائهم، يقول الله تعالى عن كفار مكة:

---

(١) راجع: معالم الدعوة فى قصص القرآن ج ٢ ص ٦٥٨، نشر دار المجتمع.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٦٦.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾[1].

فقد جهل هؤلاء الكفار أن الله يصطفى من عباده من يصلح لهذه الدعوة ومن هو أهل لها، كما قال جل شأنه:

﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[2].

٤ـ الدعاة إلى الله من الرسل يبذلون جهدهم ويتفننون فى دعوتهم إلى الله لكى تثمر دعوتهم، ولايريدون من المدعوين شيئاً من متاع الحياة الدنيا، وإنما يريدون منهم الإيمان بالله وترك ماعداه، وأجرهم على الله، فهذا نوح ـ عليه السلام ـ دعاهم إلى الله ليلاً ونهاراً، سراً وجهراً بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى. وكل ذلك لم ينجح فيهم.

٥ـ العاقبة الطيبة للمتقين، والنصر والظفر لعباد الله المرسلين، وصدق الله العظيم إذ يقول فى محكم تنزيله:

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[3]

٦ـ وبعد ما بذل نوح كل ما فى وسعه من ترغيب وترهيب طيلة هذه المدة الطويلة بلا فائدة، وأخبره الله أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن. قال جل شأنه:

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[4]

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٣١.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٢٤.

(٣) سورة غافر، آية: ٥١.

(٤) سورة هود، آية: ٣٦.

عند ذلك اتجه نوح إلى ربه وقص له ماحدث من قومه. وسأله أن يعاقبهم، فأمره الله سبحانه بصنع سفينة تحمله وتحمل القلة المؤمنة معه، فلما أتم صنعها ركب المؤمنون فيها وأخذوا معهم من كل زوجين اثنين، قال تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[1]

وبعد نزول المطر مدراراً، وتفجر الأرض عيوناً، كانت النتيجة هلاك الكافرين وفيهم امرأة نوح، وابنه، ونجّى الله المؤمنين جزاء طاعتهم، وأغرق الله قوم نوح، وطهر الأرض من رجسهم وفسادهم، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[2]

٧ـ الصلة الرحيمة التى تربط الداعى والمدعوين وتقوى الصلة بينهم صلة الإيمان، فمن دخل فى الإيمان فقد فاز وظفر بخيرى الدنيا والآخرة، ومن أعرض عن الإيمان ضل وهوى، فهذا ابن نوح ـ عليه السلام ـ كان فى زمرة الهالكين مع أنه ابن نبى ورسول من أولى العزم من الرسل، وكذلك زوجته كانت من الهالكين، لأنها لم تؤمن برسالة زوجها؛ فالوشيجة الباقية هنا هى وشيجة الدين ولا شىء غيرها.

٨ ـ وفى قصة ابن نوح التى وردت فى سورة هود ـ عليه السلام ـ[3] من أنه لم

---

(١) سورة هود، آية: ٤٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٧٦ ، ٧٧.

(٣) انظر: الآيات: ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ من سورة هود عليه السلام.

يتبع والده ولم يركب معه فى الفلك، ما يخفف على النفس الآلام، حينما يفوض الأمر لله تعالى، مادام الإنسان قد أخلص النصح لذويه وأرشدهم إلى ما يعتقد أنه الخير والحق، وبذلك يرضى الإنسان ضميره وربه، وكل أب يصاب فى ولده بشيء من ذلك فليذكر نبى الله نوحاً ـ عليه السلام ـ وهو من الأنبياء الكرام أولى العزم والمنزلة الكبرى عند الله ـ عز وجل.

* * *